

“بندر بن سلطان” : حين تتحول الدبلوماسية إلى فن لصناعة الممكن!

عيسى المزوموي



ليست الدبلوماسية مجرد وظيفة تُمارَس، بل هي رؤية تُبنى، وحدث يُصقل، وقدرةٌ على قراءة ما بين السطور قبل أن تُكتب. في هذا السياق، يبرز اسم بندر بن سلطان بن عبد العزيز آل سعود بوصفه نموذجًا فريدًا لرجلٍ لم يكتفِ بتمثيل بلاده، بل أسهم في إعادة تشكيل بعض ملامح العلاقات الدولية في مرحلة شديدة التعقيد من التاريخ المعاصر!

وُلد الأمير بندر في 2 مارس 1949 في محافظة الطائف، ونشأ في بيئة سياسية ثرية، كونه ابنًا للأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود. غير أن الانتماء العائلي، رغم ثقله، لم يكن كافيًا لصناعة شخصية استثنائية؛ إذ كان عليه أن يشق طريقه بالجهد والانضباط!

تلقى تعليمه في المملكة، ثم التحق بكلية كرانويل للقوات الجوية في بريطانيا، حيث تخرّج عام 1968. وهناك تشكّل وعيه المبكر بمعنى الدولة الحديثة، والانضباط المؤسسي، والاحترافية التي لا تعترف بالعلاقات بقدر ما تعترف بالكفاءة.

بدأ حياته المهنية طيارًا مقاتلًا في القوات الجوية الملكية السعودية، وقاد سرّيًا من طائرات “إف-5”. إلا أن حادثًا جويًا عام 1977 أنهى مسيرته العسكرية، ليبدأ فصلًا آخر أكثر تأثيرًا وعمقًا.

هنا تتجلى إحدى المفارقات الفلسفية في سيرته: فبعض النهايات لا تمثل خسارة، بل إعادة توجيه للمسار. فالإصابة التي حدّت من حركته الجسدية، فتحت أمامه آفاقًا أوسع للحضور السياسي.

عندما عُيّن سفيرًا للمملكة العربية السعودية لدى الولايات المتحدة عام 1983، لم يكن مجرد ممثل رسمي، بل أصبح لاعبًا رئيسيًا في واحدة من أهم ساحات القرار العالمي. وعلى مدى أكثر من عقدين، لم يتعامل مع الدبلوماسية كفن بروتوكولي، بل كأداة لإدارة المصالح الكبرى!

ارتبط بعلاقات وثيقة مع صنّاع القرار في واشنطن، وعلى رأسهم رونالد ريغان، حيث تجاوزت العلاقة الإطار الرسمي إلى مستوى التأثير المتبادل. وفي زمن الحرب الباردة، كان حاضرًا في مشهد تقاطع فيه الأيديولوجيا مع الجغرافيا السياسية.

لقد أدرك مبكرًا أن النفوذ لا يُصنع بالشعارات، بل ببناء الثقة، وتقديم المصالح المشتركة في صيغة قابلة للاستمرار. ولعب دورًا محوريًا في ملفات دولية معقدة، من بينها صفقات التسليح الاستراتيجية، والتوسط في أزمات إقليمية، والمساهمة في تسويات حساسة. لم يكن تحركه قائمًا على المثالية، بل على براغماتية واعية تدرك أن السياسة هي فن الممكن، لا فن المثاليات.

وهنا تبرز فلسفة عميقة في سيرته: الدولة التي لا تُحسن إدارة مصالحها، سُدّار مصالحها من قبل الآخرين.

بعد مسيرته الطويلة في واشنطن، تولّى عدة مناصب رفيعة، من بينها الأمين العام لمجلس الأمن الوطني، ورئيس الاستخبارات العامة، إضافة إلى عمله مستشارًا ومبعوثًا خاصًا للملك. ولم تكن قيمة هذه المناصب في أسمائها بقدر ما كانت في الخبرة التراكمية التي جعلت منه عقلًا استراتيجيًا يُستدعى في اللحظات الحرجة.

ورغم ما واجهه من تحديات شخصية في بداياته، استطاع الأمير بندر أن يصوغ لنفسه مسارًا مستقلًا قائمًا على الكفاءة والقدرة. وتعكس هذه التجربة حقيقة إنسانية عميقة: أن الظروف قد تُبطئ المسير، لكنها لا تمنع الوصول لمن يملك الإرادة.

يمثل الأمير بندر بن سلطان حالة استثنائية في التاريخ السياسي السعودي؛ رجل جمع بين الحضور الدولي، والذكاء الاستراتيجي، والقدرة على التكيف مع تحولات العالم. لم يكن مجرد دبلوماسي، بل صانع توازنات، ومهندس علاقات، وقارئًا بارعًا للزمن السياسي.

إن سيرته تطرح سؤالًا فلسفيًا يتجاوز شخصه: هل تصنع الدول رجالها، أم أن بعض الرجال يعيدون تعريف دور الدولة في العالم؟ في تجربة الأمير بندر، تبدو الإجابة كامنة في التقاء الاثنين؛ حيث يلتقي الطموح الفردي بالحاجة التاريخية، فتُصنع لحظة لا تُنسى، رغم كل التحديات!

